

الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن بلي به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما في معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. وقال أعرابي العشق خفي أن يرى، وجلي أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى^(١)، وقيل أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولون: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بني الحسحاس:

وكم قد شققنا من رداء مجبر ومن برقع عن طفلة غير عانس^(٢)
إذا شق برد شق بالبرد برقع من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل: لأعرابي ما بلغ حبك لفلانة؟ قال: إني لأذكرها ويني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك. وقيل: رأى شبيب أخو بنية جميلاً عندها فوثب عليه وآذاه ثم إن شبيباً أنى مكة وجميل فيها فقيل لجميل: دونك شبيباً فخذ بئارك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق^(٣) الشوق منها في الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى في الجسم موقدة ومبرد الحب لا يقي ولا يذر

وفي «الجلس الأنيس» لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرأة، فيهم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع. وأليف مؤنسر وصاحب ملك مسالكة ضيقة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها.

(١) توارى: اختفى.

(٢) عانس: لم تجاوز مرحلة الصبا.

(٣) مطارق: هي أدوات الحدادة كما نلاحظ.

والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها، وقوة تصريفها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفى في القلوب مسلكه. وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمر قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة، ولكم حذاء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا لا. قال: عاشقوا فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البلبد والبخیل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس، وتطيب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة. وقال المجنون:

قالت جنت على ذكرى فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده فنشأ الفتى ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، مسيء الأدب فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه، وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه قال وما ذاك الذي حدث؟ قال رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها، ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبي الجارية فقال له: إني مسر إليك سرّاً فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحکم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعملها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها ولا تطلعهما على ما أسرّه إليك. فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدب الموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة. ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم، والفروسة، والرماية، وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب، والآلات، والمطاعم، والملابس، والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه فقال له: إن الموضوع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة، لا يدري به، فتقدم إليه ومره أن يرفع إلي ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل للمؤدب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال له إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك. فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خباثتك، فإني أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك. ففعل الفتى رعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به، وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانة سرّه، وأحسن جائزة المؤدب لامثال أمره به. وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية فزارته يوماً فأقام يحذّثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن. فقال: رويدك حتى تزول الشمس، أي حتى تقوم الجارية. وقالت ليلي لعامة في قيسها:

لم يكن المجنون في حالة إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرّ الهوى وإنني قد ذبنت كما أنا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنني ليرضيني الممرّ بياها وأقنعُ منها بالشتيمة والزجرِ

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشقُ المعذَّبُ صبراً فخطايا أخي الهوى مغفورة
زفرةٌ في الهوى أحطُّ لذنبٍ من غزاةٍ وحجةٍ مبرورة

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين، هذه تساررني، وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه.

وأنشد شيان العذري يقول:

لو حَزَّ بالسيفِ رأسي في مَحَبَّتِها لطار يهوى سريعاً نحوها رأسي

وقال يحيى بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

الفصل الثاني: فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من عشق فعفّ فمات فهو شهيد وقال ﷺ: «عفوا، تعف نساؤكم» وقال بعضهم رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف، والنحافة، رافعة يديه تدعو. فقالت لها: هل من حاجة؟ فقالت حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزوّد كل الناس زاداً يقيهم وما لي زادٌ والسلام على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلي فقال: أنا الزاد فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء. ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد. قال إبراهيم بن محمد المهلب:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعني منه الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ
وكعمّ خلوتُ بمن أهوى فيمنعني منه الفكاهةُ والتأنيسُ والنظرُ
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم وليس لي في حرامٍ منهم وطرُ
كذلك الحبُّ لا إتيانَ معصيةٍ لا خيرَ في لذةٍ من بعدها سقرٌ^(١)

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامحَ اللحاظِ فلأنني والذي يملكُ الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقلت بحقَّ الله إلّا أتيتنَا فجئتُ وما في القوم يقظانٌ غيرها
إذا كان لوّن الليل شبه الطيالس وقد نامَ عنها كل واشٍ وحارس

(١) سقر: جهنم.

فَبَيْنَا بَلِيلٌ طَيِّبٌ نَسْتَلِدُّهُ جَمِيعاً وَلَمْ أَقْلِبْ لَهَا كِفّاً لَامِسِ

ونزل رجل على صديق له مستراً خائفاً من عدو له فأنزله في منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لأمراته: أوصيك بضيقي خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا؟ قالت ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره. وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد^(١). ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقول جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك. قال: فكيف رأيته في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لَا وَالَّذِي تَسْجُدُ الْجِبَاهُ لَهُ مَا لِي بِمَا تَحْتَ ذَيْلِهَا خَبِرُ
وَلَا بِفِيهَا وَلَا هَمَمْتُ بِهَا مَا كَانَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالنَّظَرُ

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت. فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقي الله، ولم يسفك دمًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة قلت: إي والله فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك. فذكرت له بثينة فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة لا نالتي شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريئة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ، أنه دعه بغية إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رآته بين عينيه فأبى وقال:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْحِمَامُ^(٢) دُونَهُ وَالْحُلُّ لَا نَأْبَى وَنَسْتَدِينُهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيَنَهُ يَحْمِي الْكَرِيمَ عَرْضُهُ وَدِينُهُ

وقال آخر:

وَأَحْوَرُ مَخْضُوبِ الْبَنَانِ مُحَجَّبٍ دَعَانِي فَلَمْ أَعْرِفْ إِلَى مَا دَعَا وَجْهَهَا
بَخَلْتُ بِنَفْسِي عَنْ مَقَامِ يَشِينَهَا وَلَسْتُ مَرِيداً ذَاكَ طَوْعاً وَلَا كَرْهًا

ورأود شاب ليلي الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت:

وَذِي حَاجَةٍ قَلْنَا لَهُ لَا تَبْخُ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتِ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ

وقال ابن ميادة:

مَوَانِعَ لَا يُعْطِيَنَّ حَبَّةَ خَرْدَلٍ وَهَنْ دَوَانٍ فِي الْحَدِيثِ أَوَانِسُ
وَيَكْرَهْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ فِي اللُّهُؤُ رِيَةً كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ اللُّجَامِ الشَّوَامِسُ^(٣)

وقال آخر:

(١) لا يرد: لا يأتي ما يحوم حوله.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) الشَّمُوس: صعبة القيادة.

حوّ حرائر ما همّ من بريّة
يُحسّن من لين الكلام فواسقا
كظباء مَكَّة صيدهنّ حرام
ويصدّهنّ عن الخنى الإسلام^(١)
وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف:

أتأذنونّ لصبّ في زيارتك
لا يُظهرُ الشوقَ إن طال الجلوسُ به
فعدّكُم شهواتِ السمع والبصرِ
عفّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهوئها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يا غزالاً لي إليه
أنا ضيفٌ وجزا
شافعٌ من مقلّتيه
ء الضيفِ إحسانٌ إليه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكّت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه فأعلميه أنني قد وهبتك له، فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبّت عليه. فقال لها: كفى، فلست بخائن. فقالت: قد وهبتي لك مولاتي وأنا الرسول، فقال أما الآن فنعم. وأنشد المبرّد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي
إلا نهاني الحياء والكبرم
ولا مشّت بي لزلةٌ قدّم

وقال آخر:

يقولون لا تنظُرْ فذاك بليّةٌ
وهل باكتحالِ العينِ بالعينِ ريةٌ
بلى كلّ ذي عينين لا بد ناظرُ
إذا عفّ فيما بينهن السرائرُ

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو في الطواف يوماً إذ نظر إلى شاب يتحدّث مع شابة جميلة الوجه. فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنّى، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليّ، وإن أباه منعني من تزوّجها لفقرّي وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أباه ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها. ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياها: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت، أم نراك قد هويت فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتني
أراك اليوم قد أحدثت عهداً
طربتُ وكنت قد أسليتُ حيناً
وأوزّك الهوى داءً دفيناً
فشاقك أو رأيت لها جينا
كمثل زماننا إذ تعلمينا
فقلتُ شكاً إلى أخٍ محبّ

(١) الخنى الاسلام: يصدّهن عن الفحش وينهن.

وذو الشجوة القديم وإن تعزى محبٌ حينَ يلقي العاشقينَا

ثم عدّ الأبيات، فإذا هي خمسة أبيات، فأعنت خمس رقاب. ثم قال: لله درك من خمس، أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال. وروي عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فتزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بزینب ألم قبل أن يرحلَ الركبُ وقل لا تملینا فما ملك القلبُ

فقلت: يا هذا، أتعرف قاتل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب. فقلت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: أنا زينبه؟ قلت: حياك الله وحباك، قالت: أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالإجماع في هذا اليوم فلعلك أن تبرح حتى تراه. قال: فيينما هي تكلمني إذا أنا براكب. قال: ترى ذلك الراكب. قلت: نعم قالت إني لأحسبه إياه. فأقبل فإذا هو نصيب، فتزل قريباً من الخيمة ثم أقبل، فسلم ثم جلس قريباً منها فسألته أن ينشدها فأنشدها فقلت في نفسي: محبان قد طال الثنائي بينهما فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. فقممت إلى بعيري لأشد عليه فقال: على رسلك إني معك. فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتمعجت لذلك وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بقض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح إن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ويعدها وتعهده، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً، ولم يتناشدا شعراً، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة. وقال الأصمعي: قلت لأعرابية ما تعدون العشق فيكم. قالت: الضمة، والغمزة، والقبلة. ثم أنشأت تقول:

ما الحبُّ إلا قبلَةٌ وغمرُ كفٍّ وعَضْدُ
ما الحبُّ إلا هكذا إن نكح الحبُّ فَسَدُ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها، ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق، أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول:

قد فسَدَ العشقُ وهانَ الهوى وصارَ مَنْ يعشَقُ مستعجلاً
يريد أن ينكح أحبَّه من قبل أن يُشَهِدَ أو ينحلا^(١)

وقيل لرجل قد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تظفر بها الليلة. قال: نعم والذي أمتني بحبها وأشقاني يطلبها. قيل: فما كنت صانعاً بها، قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم^(٢) عاره، وينشر قبيح أخباره إني للثيم، لم يلدني كريم. وممر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول:

(١) ينحلا: قبل مجيء شهود ودفع مهر وهي شروط عقد النكاح.

(٢) ذميم: فاسد.

ألا طَالَ هذا الليلُ وازورَّ جائئُهُ وليس إلى جانبي خليلُ الأعْبُهُ
فوالله لولا الله تخشى عواقبه لحركَ من هذا السريرِ جوانبُهُ
مخافةً ربي والحياءُ يعقُنِي وإكرامُ بعلي أن تنالَ مراتبُهُ

قال: فسأل عمر رضي الله عنه عنها، فقليل له إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر. فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر. ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب «تلقيح فهم الأثر» عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها أم من سبيلٍ إلى نصرٍ بن حجاج
إلى فتى ماجدٍ الإعرافِ مقبِلِ سهلٍ المحيا كريمةٍ غيرِ ملجأ
تمنيه أعرافُ صدقٍ حين تنسُبُهُ أخِي وفاءٍ عن المكروبِ فرَجِ

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن، علي بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره فخرج من عنده، وله وجتان كأنهما شقتا قمر فقال له: أعم فاعتم فافتن الناس بعينه. فقال له عمر: والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يدر من عمر إليها شيء، فдست إليه المرأة أبياتاً وهي:

قلْ للأمام الذي تُخشى بوادره ما لي وللخمر أو نصرٍ بن حجاج
لا تجعلِ الظنَّ حقاً أن تبينه إن السبيلَ سبيلُ الخائفِ الراجي
إن الهوى زَمٌ بالتقوى فتحبسه حتى يقرَّ بالجمامِ وإسراج

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى. قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء ويده الدرة. فقالت له: يا أمير المؤمنين، والله لأفعلن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبنك الله أبيتن عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبينني وبين ابني الفيافي والأودية. فقال لها: ابني لم تهتف لهما العواتق في خدورهن. ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم: سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سئرتني أو حرمتني وما نلتُ من عرضي عليك حرام
فأصيحبتُ منفيّاً على غير ريةٍ وقد كان لي بالمكئين مقام
لئن غئتِ الذلفاء يوماً بمنية وبعضُ أمانِي النساءِ غرام
ظننتُ بي الظنَّ الذي ليس بعده بقاءً وما لي جريمة فألام

فيمتُنْسي مما تقولُ تَكرَمي وآباءُ صدقٍ سالفونَ كرامُ
ويمتُنْها مما تقولُ صلاتها وحالُ لها في قومها وصيامُ
فهاتان حالان فهل أنت راجعي فقد جبَّ مني كاهلٌ وسنامُ

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات. قال: أما ولي السلطان فلا، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثني أبي قال كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس رجهاً، وأكملهم عقلاً، وأكثرهم أدباً، قد قرأت القرآن، وروت الأشعار وتعلمت العربية، ف وقعت عند يزيد بن عبد الملك، فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم، ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدي إليه معروفاً؟ قالت يا أمير المؤمنين: أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي، وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم. فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه. فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهم فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين ما لي حاجة. قال: ويحك أو لست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي ما أظنك تقضيها. فقال: فاسألني فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها. قال: فلي الأمان يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم. قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريك فلانة، التي أكرمتنا بسببها، أن تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل. قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها، فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين، فأمر بالفتى فأحضر، وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فنصب فقمع يزيد على أحدها، والجارية على الآخر، والفتى على الثالث، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

لا أستطيع سلوّاً عن موَدّتها أو يصنع الحبّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هَجْرها قلبي فيسعدني حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزعاً

فأمرها فغنت، وشرب يزيد، وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى سل حاجتك، فقال مرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

تخيرت من نعمانٍ عودَ أراكِ لهند ولكن مَن يبلغه هنداً
ألا عرجاً بي بارك الله فيكما وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصداً

فأمرها فغنت، وشرب يزيد وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني هذا الشعر:

مني الوصالُ ومنكم الهجرُ حتى يفرقَ بيننا الدهرُ

والله لا أسلوكمو أبداً ما لاح بدر أو بدا فجر

فأمرها فغنت، قال: فلم تتم الأبيات حتى خرّ الفتى مغشياً عليه، فقال يزيد للجارية: قومي انظري ما حاله؟ فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد أبكيه، فقالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي، فقال لها: أبكي الله لو عاش ما انصرف إلا بك. فبكت الجارية، وبكى أمير المؤمنين وأمر الفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجواري المغنيات، والعشق، فقال عبد الملك لعبد الله: حدثني بأمر ما مرّ لك في هذا الأغاني، وما رأيت من الجواري. قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم، وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إليّ في شأنها، فكتبت إليه والله لا تخرج مني بيع، ولا هبة، فأمسك عني فكانت عندي على تلك الحالة لا أزدد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ اتتني عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه، ويراهما وتراها، وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكي شغف وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز، فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه، وقعد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها، ولم أر بينهما إلا عتياً. ولم يزالا كذلك حتى ابصر الصبح فدعوت بها وقلت: لقيمة الجواري أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزيتها، فلما جاءت قبضت على يديه وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً، فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هي هبة مني إليك، فدهش الفتى ول يجيني فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببيعتك فقم وانصرف بها إلى منزلك، فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت. فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره. قال عبد الملك: لقد جئتني بعجب، فما صنعت الجارية؟ قلت: ماتت والله بعد بأيام بعد نحول عظيم وتعليل، وماتت كمداً ووجدت على الغلام.

وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته في ثوب زوجها فمات. وذكر محمد بن واسع الهيثمي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسيّر لي ثلاث جوار مولدات أبكاراً يكون إليهنّ المنتهى في الجمال، واكتب لي بصفة كل جارية منهنّ، ومبلغ ثمنها من المال. فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض، وأعطاهم المال وكتب لهم كتاباً إلى كلّ الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلا يزالوا من بلد، إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهنّ مثيل. قال وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهنّ بقيمة، وأن ثمنهنّ ثمن واحدة منهنّ. ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أن اشتري له ثلاث جوار مولدات أبكاراً، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهنّ وثمانها. فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عبيطاء السوالف^(١)، عظيمة الروادف، كحلاء العينين،

(١) عبيطاء السوالف: مرتفعة السوالف.

حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج كأنها فضة قد شابها ذهب

وثنمها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم وأما الثانية فإنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القَد والكمال تشفي لسقيم بكلامها الرخيم، وثنمها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف، لطيفة الكَف عميمة^(١) الردف شاكرة للخليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثنمها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أظن في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين، فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير. إني رجل كبير ضعيف عن السفر، ولي ولد ينوب عني أفأذن لي في ذلك قال نعم فتجهزوا وخرجوا فقي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشفت بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم، فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأثاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم، عيني لا تمل من البكا وقلبي بأسهام الأسى يترشق

أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى وقلبي رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما، جنّ الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه، وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه، وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال؟ فقالوا يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان. قال: إن صدقتم أمتم، وإن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد^(٢) بالحديد، فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب، ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغماً وقد شئت إلى عنقي يدياً

مقراً بالقيح وسوء فعلي ولست بما رمت به برياً

فإن تقتل فوق القتل ذنبى وإن تعفو فمن جود علياً

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، استخفاف بنا، أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك، ما هو إلا هوى الجارية. فقال: هي لك بما أعدته لها. فأخذها الغلام بكل ما أعد لها أمير المؤمنين من الحللي والحلل، وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً

(١) عميمة: غليظة.

(٢) مصفد: به الأصفاد وهي القيود.

فتعانقا وناما، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نهوهم فوجدوهم ميتين. فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ، أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضي الله تعالى عنه إلى مشركي خزاعة. قال خالد: فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس، قال فجذبنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً، حتى تعالى النهار، وطار الشرار، وهاجت الفرسان، وتلاحمت الأقران، فلولوا أن الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً، ولم ند لهم فارساً إلا قتلناه، ثم طلبنا البيوت فنهينا وسمينا، فلما هدا القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لتقدم بهنّ علو رسول الله ﷺ، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم، ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة. فقلنا له يا غلام انعزل عن النساء، فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا، فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فأريت أصحابي قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه، فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد، قال: فبرزت إليه بنفسي بعد أن أنشدت شعراً، فوالله لم يمهلي حتى أتم شعري بل حمل علي فتطاعنا حتى تكسرت القنا. وتضاربنا بالسيف حتى تفللت، فوالله لقد اقتحمت الأهوال، ومارست الأبطال، فما رأيت أشد من حملاته، ولا أسرى من هجماته، فبينما نحن نعتك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له افد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنا أردك من حيث جئت. قال: يا خالد ما أنصفتني اتركني حتى أجد من نفسي القوة قال خالد: فتركته وقلت لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً، وصفدته بالحديد وأنا أبكي إشفافاً على حسر شبابه، ثم أوثقته على بعير لي، فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي، قال خالد: فأخذتها وشدتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وصرنا، فلما استقامت مطاياهم جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار، ويكيان إلى آخر الليل فسمعتهم يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذمر أن لا يسلم أبداً. فأخذت السيف وضربته فرميت رأساً فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة. فأبركنا الأباغر وحفرنا ودفنناها. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحذثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثوني شيئاً أنا أحدثكم به، فقلنا: مَنْ أعلمك به يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبريل عليه السلام. وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهم، وموافقة أجلهما.

ومن ذلك ما حكاه الثوري قال: حدثني جبلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت في طلب إبل لي ضلت فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخفيت الطريق فصرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها. فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجاني حتى كدت أن أسقط عن فرسي، فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسي، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً، فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنْتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها أرى الأرضَ تطوى لي ويدنو بعيدُها
من الخفراتِ البيضِ ودَّ جليسها إذا ما انقضَّتْ أحداثُها لو تبيدُها

قال: فدنوت منه وسلمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به المسالك أتاك يستجير

بك ويستعينك. قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندي طاء وطيء، وطعام غير بطيء، فنزلت، فترع شملته^(١) وبسطها تحتي. ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز، ثم قال: اعذرني في هذا الوقت، فقلت والله إن هذا لخير كثير، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه. فلما أكلت تروضات وصليت، واتكأت فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حسن شيء، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي فضحت الشمس حسناً، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلاً يتحادثان. فقلت: هذا رجل عربي ولعلها حرمة له، فتناومت وما بي نوم، فما زالا في أحسن حديث، ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقيح. فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت، ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطيني عني كما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنني أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويكي. فبكيت رحمة لهما وقلت في نفسي: والله لا أنصرف حتى استفيضه الليلة وانظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلني الله فداءك، الأعمال بخواتيمها، وقد نالني أمس تعب شديد، فأحب الراحة عندك اليوم فقال: على الرحب والسعة، لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدتي إلا كما تحب، ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي، فأكلت وأكل معي، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهاري ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه، ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان، ولم أعلمه بشيء ما رأيت. فلما أقبل الليل وطأت وطائي فصليت وأعلمته أنني أريد الهجوع لما مرّ بي من التعب بالأمس. فقال لي: نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أتم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل، فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمته أنني نائم، فقال: يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة قلت قد رأيتها قالت فتلك ابنة عمي، وأعز الناس علي، وإني لها محب، ولها عاشق وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها، وقد منعني أبوها من تزويجها لي لفقرتي وفاقتي وتكبره علي فصرت راعياً بسببها، فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي عليها وتحديثي نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول:

ما بال مية لا تأتي كماداتها أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسى فداؤك قد أحللت بي سقماً^(٢) تكاد من حره الأعضاء تنفصل

قال: ثم انطلق فغاب عني ساعة وأتى بشيء فطرحة بين يدي فإذا هي الجارية قد قتلها الأسد، وأكل أعضائها، وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحة ثم أنشأ يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسه هلكت لقد جريت حقاً لك الشرا
وخلفتني فرداً وقد كنت أنساً وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال: بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك، فإني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة، فإذا أنا مت فخذ عبادتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي وادفنا في قبر واحد وخذ شويهااتي هذه. وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والدتي فأعطها عصاي هذه، وثيابي وشويهااتي وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب فإنها

(١) شملته: العبادة.

(٢) سقماً: مرضاً.

تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام. قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته. فقلت: والله لأصنعن له ما أوصاني به. فغسلته وكفنته في عبائه وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبِت تلك الليلة باكياً حزيناً. فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهاة فقالت لي: هل رأيت شاباً يرعى غنماً فقلت لها: نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل، وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هي منكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد، ولا جارحة تتحرك. فحركتها فإذا هي ميتة. فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبِت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهرُ يجمعنا والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
فمزق الدهرُ بالتفريق ألفتنا وصارَ يجمعنا في بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم، ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم، وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاء شديداً، ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كُتَيَّر الخبر فقال والله لأحجن لعلني أفوز من عزة بنظرة. قال فبينما الناس في الطواف إذ نظر كُتَيَّر لعزة وقد مضت إلى جملة فحيته ومسحت بين عينيه وقالت حيت يا جمل فبادر ليلحقها فقاتته فوقف على الجمل وقال:

حَيَّكَ عَزَّةُ بعد الحجِّ وانصرفْتُ فحيَّ ويحك من حَيَّاكَ يا جملُ
لو كنتَ حيتها ما كنتَ ذا سرفو عندي ولا مَسَّكَ الإدلاج والعملُ

قال فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له: من تكون يرحمك الله قال أنا كُتَيَّر عَزَّةُ فمن أنت يرحمك الله قال أنا الفرزدق بن غالب التميمي قال: أنت القاتل:

رحلْتُ جمالهم بكلِّ أسيلة تركتُ فؤادي هائماً مخبولا
لو كنتُ أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودع قلبي المتبولا
ساروا بقلبي في الحدوج وغادروا جسمي يعالجُ زفرةً وعويلا

فقال الفرزدق: نعم. قال كُتَيَّر، والله لولا أني بالبيت الحرام، لأصيحن صيحة أفرع بها هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه. فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا وافترقا. فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كُتَيَّر. فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها. فكتب إليه بذلك فخرج كُتَيَّر يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانه وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه، وارتاع من ذلك وجدّ في السير، ثم إنه مال ليسقي راحلته من حي بني فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحي فقال: يا ابن أخي أرايت في طريقك شيئاً فراعك؟ قال نعم يا عم رأيت غراباً على بانه يتفلى ويتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب، والبانه بين، والتفلي فرقة فازداد كُتَيَّر حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجدّ في السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على

جنازة فتزل وصلى معهم فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كُثَيِّر عن هذا اليوم فقال ما هذا اليوم يا سيدي فقال إن هذه عَزَّةٌ قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرفَ الفهْدِيَّ لا دَرَّ دَرَه وأزجره للطير لا عز ناصِرُه
رأيت غراباً قد علا فوقَ بَانِه يتفأ أعلى ريشه ويطايرُه
فقال غرابٌ واغتراب من النوى وبانة بين من حبيب تعاشرُه
ثم شهِقَ شهقةً فارقت روحه الدنيا، ومات من ساعته، ودفن مع عَزَّةٍ في يوم واحد.

وحكى الأصمعي قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:
أيا معشرَ العشاقِ بالله خَبِّروا إذ حلَّ عشقٌ بالفتى كيف يصنعُ
فكُتِبَتْ تحته:

يبداري هواهُ ثم يكتُمُ سرُّه ويخشعُ في كلِّ الأمورِ ويخضعُ
ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:
فكيف يبداري والهوى قاتلُ الفتى وفي كل يومٍ قلبُه يتقطَّعُ
فكُتِبَتْ تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمانِ سرِّه فليس له شيء سوى الموتِ أنفعُ
ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً، فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنا أظعننا ثم متنا فلبَّغُوا سلامي على مَنْ كان للوصلِ يمنعُ
وحكى أيضاً عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه قال: بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تندب وتقول:

بروحي فتى أوفى البرية كلها وأقواهم في الحبِّ صبراً على الحبِّ
قال: فقلت لها: يا جارية بم كان أوفى البرية، وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا إنه ابن عمي هويني فهويته، فكان إن أباح عَفْوه، وإن كتم لاموه، فأنشد بيتي شعر، وما زال يكرّزهما إلى أن مات، والله لأندبته حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه، فقلت لها يا جارية فما البيتان؟ قالت:

يقولون لي إن بحثَ قد غرَّكَ الهوى وإن لم أبخُ بالحبِّ قالوا تصبرا
فما لامرئ يهوى ويكتم أمره من الحبِّ إلا أن يموت فيعذرا
ثم إنها شهقت شهقةً فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها.

والحكايات في ذلك كثيرة، وفي الكتب مشهورة، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا في هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.